إلى مصر
أم النيل والهرم
أم القيم والقمم

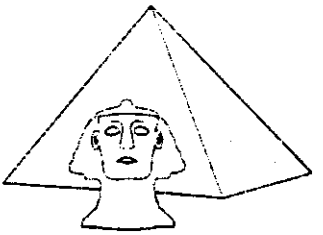

جمال المرزوقى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يُشير كثيرٌ من كُتَّاب الغرب إلى الحضارة الإغريقية كما لو كانت حدثاً فريداً تتضاءل إلى جانبه ما قدمته كل حضارات الشرق القديم، فبينما كانت مدنيات الشرق السابقة على مدنية الإغريق- في رأى هذا البعض من الكتاب- ذات كفاية بالغة في الأمور العملية فإنها كانت جدباء من الناحية العقلية، لقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الإغريق فماذا فعلوا بها؟ لا شيء، لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه.

إن الإغريق هم الذين ابتكروا الأدب وأوصلوه إلى حد الكمال، إن شعر الملاحم والتاريخ والفلسفة بكل فروعها والاقتصاد والرياضيات وكثيرٌ من العلوم الطبيعية كلها تبدأ بالإغريق . وقد مال أشياع هذا الرأى تدريجياً باتجاه فكرة "المعجزة اليونانية " و "أصالة الفكر اليونانى" و" الشعاع الخاطف" في بحر من الظلمات، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعنى القول بأن اليونانيين غير مدنيين في "علومهم" و" فنونهم"و "فلسفتهم"، بل" وأديانهم " لشيء شرقى، وإن كان هناك أثرُ ما في "الفنون" و" الفلك"، فإن القفزة التى قدمها اليونانيون في هذا المجال تلغى هذا الأثر وتلاشيه، وينتهى أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأى، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليونانى الخالص.

وهذا الرأى، على غلوه- أو على خطئه- له أنصار كثرٌ في الغرب، ومن العجب أن يكون له أنصار كثرٌ في الشرق أيضاً.

فهذا (زيلر) يرى أن الفلسفة الإغريقية ابتكار إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأننا لا نجد عند الأمم التى قبلهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، وظهور الفلسفة اليونانية يعود - في رأيه- بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على الفهم والقدرة على التخيل، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مثمر.

وهذا (برنيت)- أحد أكبر من يدافع عن "الأصالة المطلقة" للعلم والفكر والدين اليونانى- يذهب إلى أن آراء البابليين والمصريين في تفسير خلق العالم من

المادة، آراء أسطورية، وعلومهم لم تصل إلى التنظير أو التجريد العقلي، بل هي عملية بحتة، بينما هي نظرية وعلم بحت منظر ومجرد عند اليونان.

ويقول (برتراندرسل): في كل التاريخ ليس هناك شيئ أكثر إثارة للدهشة- بل ما لم يكن في الحساب - كالظهور المفاجئ للحضارة في بلاد اليونان، إن كثير من مقومات الحضارة كان قائما منذ آلاف السنين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين، ولكن عناصر ظلت تنقص هذه الحضارات إلى أن زودها بها الإغريق، إن ما ابتكروه في المجال العقلي شيئ فريد، لقد ابتكروا الرياضيات والعلم والفلسفة، وهم أول من كتب التاريخ، وحتى العصر الحديث مازال هناك من يتحدث عن العبقرية اليونانية كما لو كانت معجزة.

وقارئ مثل هذه الآراء لا يفوته أن يلاحظ أن أصحابها يتحدثون بلغة جد قريبة من فكرة " التفوق القائم على الجنس"، فهم يتحدثون عن الشعب اليوناني بأنه وحده الذي استطاع أن يسبر أغوار الطبيعة والمجتمع ونفسه بحياد العلماء، ويرون أن مما ساعد على هذا خواص يتمتاز بها العقل اليوناني مثل الإحساس القوى " بالحقيقة" والقدرة الفائقة على "التجريد"، ومكنهم هذا من تأسيس الفلسفة وقضاياها.

ولابد أننا قد ضقنا ذرعاً بهذه اللغة "التفاخرية" التي تنضح بفكرة "الاستعلاء"، ونتطلع إلى مزيد من الأدلة المفحمة لإزالة هذه الأوهام التي طالما رددها دعاة هذا التفوق، وأصحاب هذه اللغة التي تؤكد تعصبهم العنصري، ونرى أن الحضارة الإغريقية- وقد نشأت متأخرة عن حضارات الشرق جميعا- قد أفادت منها، بل إن الحضارة الإغريقية طوال تاريخها تستمد من الحضارات المجاورة عناصر تراثها بفضل رحلات كبار مفكريها وبخاصة إلى مصر، فضلاً عن رحلات الأجانب إليهم، يقول هيجل:

إن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية كانت مرتبطة بقدوم الأجانب إليها، وكان الإغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان.[1]

---

(1) Hegel G.W.F: The philosophy of History tran. by J,Sibree, P.228.

وبالتالي فإن الاعتقاد بأن شعباً، كاليونانيين مثلاً، قد استأثر بالبحث العقلي، والتنظير والإبداع، وأن الشعوب الأخرى نقلت عنه وتأثرت به، اعتقادٌ أثبت المزيد من التحرى والتمحيص خطأه وتحيزه.

ويوجد كتاب لباحث أمريكي هو الأستاذ "جورج جيمز " بعنوان (التراث المسلوب: اليونانيون ليسوا واضعي الفلسفة اليونانية، ولكنهم شعب شمال أفريقية وهم المصريون، نشرته المكتبة الفلسفية بنيويورك سنة ١٩٥٤، وأُعيد نشره في سان فرانسيسكوا سنة ١٩٧٦) وفيه يعرض المؤلف لحياة أشهر فلاسفة اليونان، سقراط وأفلاطون وأرسطو، ويستعرض مذاهبهم، مقرراً أن الإلهيات التى كانت تدرس في منف هى أساس كل المذاهب التى تكون الفلسفة اليونانية.[1].

ويؤكد (سارتون)، أن من السذاجة القول ببدء العلم في اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقى والإطار الذي نشأ فيه، سببُ أفسد هذا العلم ومدى قيمته وجدته، ويطلق -سارتون -على تقدم اليونان الرائع في ثلاثة قرون "معجزة" تثير الإعجاب والحيرة، ولو أنه يؤكد مراراً إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هى زهرة لسلسلة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهى - وكذلك الشعر الهوميرى- نهاية لابداية.

ويناقش اشتراط التجريد ليكون العلم علماً، ويذهب إلى أنه لا حدود للتجريد، ولا أوصاف معينة محددة له حتى نقول هنا بدأ، وإنه منذ اخترع أول إنسان أو أناس العدد واللغة كان هناك تجريد، فالإنسان منذ نطق يكون جرّد، فكل كلمة هى تجريد، وكل تجريد هو سلسلة من الممارسات العلمية الطويلة، وسلسلة من العمليات العقلية العليا، كالتحليل والتركيب، وبالتالى يتأكد خطأ ادعاءات ابتداء التنظير والعلوم النظرية مع اليونان.

وعلى العكس، فإن ما قدمه الإنسان قبل اليونان، هو كالمحيط بالنسبة لما قدمه اليونان، ومن الغلط الشنيع بعد هذا أن يدعى مُدع أن العلوم بدأت،

---

(1) George G.M. James: stolen legacy: The Greeks were not the authors of Greek philosophy, but the people of North Africa, Commanly caled the Egyptians, San Francisco. Julian Richardson Associates publishers, 1976.

وكذلك سائر الفنون .. الخ مع اليونان، أو أن ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التفسير.

ومن الكتب الهامة والجادة التي قوضت مفهوم "المركزية الأوروبية " وأثبتت دور الحضارات القديمة (المصرية بصفة خاصة) في التأثير على الحضارة اليونانية، ومن ثم على الحضارة الأوروبية المعاصرة، كتاب " أثينا السوداء"، أى أن أثينا ليست بيضاء، بمعنى أن مصدر حضارتها ليس الغرب الآرى، بل أفريقيا السوداء، أو الشرق السامى في آسيا، لذلك وضع مؤلفة- مارتن برنال- عنواناً فرعياً "الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة القديمة"[1]، والكتاب كله- في أجزائه الثلاثة- ملحمة في تاريخ مصر، وأنشودة لدورها في التاريخ، وفضلها على الحضارات الشرقية والغربية على السواء.

والآن يبدو أن على كاهل الذين ينكرون تأثير الشرق في الحضارة اليونانية، أو يبخسون قيمته، من العبء، في إقامة الدليل على رأيهم، مثل ماعلى كاهل خصومهم، فالذين ينكرون إمكان قيام فكر نظرى في الشرق، وتأثر اليونانيين به، يعوذهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة وتعوذهم الخبرة بأحوال الإنسان، وكلا وجهى هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى، أما اليوم فلا عذر لأصحابه.

كما أنه من الجهل تماماً أن يحذف الإنسان دور وأثر أية خدمة يقدمها الإنسان مهما كانت، أو بدت ضئيلة، في مجالات العلوم، واستكشاف الطبيعة، والحرف، والاختراعات، وشتى المجالات الأخرى، كما أنه من المبالغة وعدم الصواب تفخيم هذا الدور أو ذاك، إلى حد نسيان الأدوار التي مهدت له، أو التي تلته، كما فعل أنصار المعجزة اليونانية، كذلك فإنه من الخطر عزل الأمور بعضها عن بعض في مجال التقييم، إن أى اختراع الآلة أو تحسين لها، يتضمن عمل البشرية كاملة، ومن ذلك، كم يظهر مجانباً للعدل والموضوعية قول من تعصب للعبقرية اليونانية، عن الدور العالى الابتكارى المحض لليونان، والدور الضئيل لسائر من سبقهم، إن الخطوة الأولى التي يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشى

---

(1) **Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic roots of classical civilization, Rutgers University press. New Braunswick, New Jersey, U.S.A, Vol.1, 1785 - 1985, 1987, Vol.2, 1991,Vol.3, In print.**

ليست أصغر ولا أبطأ ولا أقل أهمية ودلالة على القدرة، من عدوه السريع فيما بعد إلاّ بمنظار انعزالي جامد ومتعصب.

ونتيجة لما تقدم، نستطيع أن نقول:

إن فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتحريد أو التنظير، فإنه ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أن يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم، فلم يعد مقبولاً الرأي القائل بأصالة الفكر اليوناني، وبأن من سبقهم لم يصلوا إلاّ إلى طور العلم العملي فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من إنجازات في مجال العلم والمجالات الأخرى، قبل اليونان بوقت طويل.

إن البحث الموضوعي الهادئ، يؤدي إلى الاعتراف بوجود "قفزة" أو تبدل كيفي في مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجيء الحضارة اليونانية، إلاّ أنه تبدل حدث من تجمع كمي هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان.

وهذا الكتاب (الفكر الشرقي وبدايات التأمل الفلسفي) محاولة نؤكد بها على تلك النتيجة التي انتهينا إليها، وهو -الكتاب- يشمل عشر فصول،

- ناقشنا في الأول منها (الأصالة الشرقية) بين الإنكار والتأييد، وانتهينا فيه إلى أن مدارس الفكر الأوروبي العنصرية التي زعمت تفوق الجنس الآري الأبيض، لا تستند إلى حقيقة من التاريخ، وإنما تقيم دعواها على فلسفة عنصرية عدائية دعائية، فالعقل الشرقي لا يقل عمقاً وأصالة عن العقل الغربي، وأن جميع ما يحويه التفكير الإغريقي، يبدو أمامنا على حقيقته، إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، ولن نقع في خطر الجهالة إذا ما عمدنا إلى جمع معلومات عن حالة (التفكير النظري) في أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقي، وهي حضارات الشرق القديمة.

وتأتي الفصول من الثاني إلى العاشر، تفصيلاً لـ " حالة التفكير النظري" - هذه - في حضارات الشرق القديمة.

- فيعرض الفصل الثاني (للعقيدة المصرية القديمة)، مبيناً أشكالها، وكيف أنها مظهر مرئي لقوى مقدسة مجردة، ومتناولاً موضوعين على قدر كبير من

الأهمية، في الكشف عن حالة التفكير النظرى عند المصرى القديم، وهما (نشأة العالم) و(قدر الإنسان مصيره).

- ويتناول الفصل الثالث (إخناتون) موضحاً كيف أنه يعد أول ثورى في العالم يسعى لصياغة توحيد عالمى، وكيف ثار على التقاليد اللاهوتية، منتصراً لعقيدة التوحيد، وصار بذلك أول مفرد في التاريخ يترع إلى التوحيد.

- ويكشف الفصل الرابع عن أن المصرى القديم، صاحب أقدم (تجديد اجتماعى) في العالم، فيبين معالم هذا التجديد، متناولاً بعض التجارب الحياتية التى سجلها وتركها لنا حكماء مصر القديمة، والتى تعكس وعياً اجتماعياً وأخلاقياً رائعاً.

- أما الفصل الخامس، فيُحَلل بعض معالم (الحس السياسى عند المصرى القديم)، وكيف أن الصلة بين الحاكم والمحكوم ينبغى أن يكون أساسها العدل والمساواة بين الجميع، كما يُظهرنا - هذا الفصل - على ما نشأ في مصر القديمة من وعى اجتماعى بعدم السكوت على الظلم، وضرورة أن يعود الحق إلى أصحابه، وعناية المسئولين بالنظر في مظالم مرؤسيهم وأنصافهم.

- ويجمل الفصل السادس (الأفكار الفلسفية) في حضارة مصر القديمة، علمياً وفنياً ودينياً وفلسفياً.

- ويؤكد الفصل السابع، أن بدايات فلسفية في الطبيعة والأخلاق، ظهرت في وادى الرافدين، وكان لها دورها المؤثر في تكوين الفكر العالمى.

- ويتناول الفصل الثامن (الفلسفة الهندية) موضحاً سماتها، وبداياتها، كما تبدو في التأملات المسجلة في نصوص (الفيدا) و(الأوبانيشاد) والتى تحفل بالفكر التأملى والتصورى فيما يتعلق بطبيعة النفس والواقع.

- ويُعالج الفصل التاسع منهج (البوذية) في كيفية تجاوز المعاناة وتحقيق الاستنارة، كما يلقى بعض الضوء على (جوتا ماسدهارتا- بوذا) الذي يعتبر من أوائل المفكرين الذين أعلوا من شأن العقل، وأكدوا سلطان الإنسان على أفعاله، وأن بيده وحده توجيه مصيره.

- أما الفصل العاشر، فيحلل (بدايات) الفلسفة الصينية بين كونفوشيوس ولاوتسو، مبيناً كيف أن الكونفوشية فلسفة إنسان اجتماعية، وكيف أن التاوية قد أكدت على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة.

وقد ذيلنا الكتاب بملاحق تضمنت بعض النصوص المصرية القديمة، التي توثق للأصالة المصرية القديمة، وقيمة إسهاماتها التي قدمتها في تكوين الفكر الإنساني.

وبعد، فأسال الحق تبارك وتعالى، أن يكون الجهد المتواضع الذي بُذل في هذا الكتاب محققا للفائدة المرجوة منه.

ولله ولي التوفيق.

المعادى في: ١٤ أكتوبر ١٩٩٦م **دكتور جمال المرزوقي.**